ط»!

لا يملك أطفال سوريا إلا ابتساماتهم ضدّ موجة العنصريّة التي تجتاح لبنان (هيثم الموسوي)

آخرين أمضوا ليالٍ على الحدود ومع هذا لم يسمحوا لهم بالدخول، إلّا أن إيمانها بقي راسخاً فـ«ربّها لن يسمح بأن تعود أدراجها مكسورة الخاطر». ولن يقبل أن تخسر ما دفعته، أي أجرة الطريق كاملة، طريق طويلة وشاقّة من دمشق إلى بيروت. هي عزمت وتوكّلت على الله. وبالفعل، فإنّ ذكر الله لم يفارق لسان المرأة طول الطريق. عند كل حاجز، وعند كل نقطة تفتيش، ظلّ ذكره على لسانها حتّى عندما وصلت إلى الحدود اللبنانية وأصبحت على تماس مع رجال الأمن اللبناني وقدّمت هويتها طالبةً المرور.

«خلّيكي برّا». هكذا جاء رد موظّف الأمن العام على طلب أم عبدو. صرخ بوجهها «انتظري في الخارج ألا تفهمين، ففي حيثُ يقف الآخرون». صراخٌ كثير يصمّ الآذان. انسحبت المرأة باستحياء، جرّبت أن تتوسّط لدى الكثيرين، رجت واستنجدت كثيراً، لكن بلا جدوى انتهى بها المطاف في ذلك الصف الطويل. صف الّذين «شكلهم غلط». صف الذين لم يرتقوا لدخول هذا البلد الجليل، طبعاً بعد أن دفعت أجرة الطّريق كاملةً. صحيح، أنّ صف الممنوعين من الدخول طويل، لكن في المقابل هناك الكثيرون ممّن سُمح لهم بالدخول وختم الأوراق والدخول إلى الأراضي اللبنانية المبجّلة! لميزةٍ واحدة لا غير على ما يبدو، وهي أن «شكلهم مش غلط».

بطبيعة الحال، يمرّ أصحاب الهوية اللبنانية «مرور الكرام». بمجرد أن يلوّح أحدهم بالهوية اللبنانية، تُفتح أبواب الوطن المجيد في وجهه، وترتسم البسمة على وجوه المتعسّفين. لوهلة، تشعر بأنك ذو قيمة وأن هويتك التي لطالما حلمت باستبدالها، تغدو فجأة ذات قيمة، وأن النشيد الوطني يبث من مكانٍ ما، ربما من عرش الله المصنوع منْ خشب الأرز، أو من شاشة محليّة تطل منها مذيعة بملامح فينيقيّة. لكن أيّة قيمة وأين؟ هنا؟ على هذه الحدود البائسة التي تُغلق في وجه اللاجئين المحتمين بأرض الله الواسعة؟

ثقتهم بأنفسهم أكثر، فمن نفد منهم، روى لأصدقائه بالمدرسة مغامرات نجاحه بالهروب، ومن لم ينفد، افتخر برجولته برواية مغايرة للأولى، وربما، يصبح بطل المنطقة لاحقاً.

وماذا إن كان هؤلاء العناصر «الأخلاقيّة» متنكرين مدنيّاً؟
هنا الفكاهة.

إياك أن تمشي في شارع بسوريا مع شقيقتك، وحيدَين، من دون اثبات لصلة القرابة بينكما. فسيشك بأمركما «أخلاقيّاً». أما اذا كنت مع صديقتك، فهنا المصيبة. الا أنّ شباب سوريا فهموا الدرس تماماً. يبدو هذا مبالغاً فيه، لكن لا أحد يعرف موعد «الكبسة». فجأة، قد يأتي رجل بثياب «مدنيّة»، يطلب منك ولاعة لسيجارته، ويسألك عن الفتاة التي ترافقك، ويبدأ بتهديده المحفوظ عن ظهر قلب، وكأنه شريط مسجل يعاد ويكرر، «من الي معك؟ شو عم تعملوا مع بعض؟ شو رأيكون اذا شحطتكون هلأ عالفرع...» وقد تضطر الفتاة إلى مسايرة المجتمع، فتخاف على «صيتها» من رجال «الأخلاقيّة»، ففي حال ذهابها إلى الفرع قد تتعرض لـ«بهدلة» والفضيحة أمام أهلها والجيران. غير أن ثمة شبان تمرّسوا في الهروب. صاحب الخبرة كان يعلم تماماً ما يتوجب القيام به. قد يتمشى مع «العنصر» قليلاً، وينتهي حديثهما بـ«اكرامية» بقيمة 200 ليرة سوريّة. اكرامية وليست رشوة. هكذا يسمونها، فيعترض عنصر «الاخلاقيّة» المتنكّر على المبلغ، لأنه غير كافي، ليعده الشاب بزيادة المبلغ بعد أن يتخرج من المدرسة الثانوية ويلتحق بالجامعة، فيتباوسان، ويعود الشاب إلى صديقته، ويكملا المشوار.

ماذا عن فصل الشباب عن البنات في المقاهي والمطاعم؟
هنا الفكاهة أيضاً.

إنها حقيقة. وقد يبدو هذا مبالغاً فيه، لكن أشياء مثل هذه كانت تحدث أيضاً. كانت المطاعم عبارة عن أقسام، قسم للشباب، قسم للبنات، وقسم آخر للعائلات، حيث يتبادل الجميع النظرات من دون احتكاك مباشر. لذلك، معظم شباب سوريا مهذبون. لا علاقة للثقافة والقيم بذلك، دعكم من هذا، لا تصدقوا شيئاً من هذا. الأخلاق سببها «الأخلاقيّة»، وكما يعلم الجميع، فلطالما كانت أفرع الأمن هي العين الساهرة على المواطن السوري! و«الأخلاقيّة»، للمناسبة، من «ألطف» الفروع، «الساهرة» طبعاً. ورغم أن فرع «الأخلاقيّة» هذا قد حُلَّ منذ أكثر من 5 أعوام، أي قبل الحرب، ما زال التهديد به هو مصدر رزق وفير لبعض عناصر الأمن «الساهرين» حتى يومنا هذا.

حديقة في الذاكرة البيضاء

إلهام برجس

يقال إن أبناء المدن الساحلية لا يستطيعون ترك مدينتهم لأكثر من يومين. يقال إنهم كالأسماك، لا يتقنون العيش بعيداً من البحر. والواقع أن المقولة هذه لا تنطوي على خرافة، فهي واقع أبناء المدن الساحلية اللبنانية التي لم تنفصل عن البحر بعد. فسكان المدن التي لا تزال في حالة تداخل مع الشاطئ والمياه، وكأنها جزء لا يتجزأ منها، يرتبطون بالبحر من خلال تفاصيل تتعلق بحياتهم اليومية. لقد عرفت بيروت، العاصمة الساحلية، واقعاً من التناغم بين الطبيعة البرية الخضراء، وبين البحر الذي يحتضنها. ومن أبرز الأمثلة على هذا التناغم حديقة «الرملة البيضاء» التي كانت تمتد على مساحة 10 آلاف متر مربع، بحسب «الدليل الأخضر لمدينة بيروت»، وهو عبارة عن خريطة تشير الى حدائق المدينة، القليلة. الحديقة موجودة في الدليل وحسب.

الحديقة التي احتضنت أبناء المجتمع البيروتي لسنين طويلة، تلاشت كما ذاكرة المدينة. لم يبق من الحديقة الضخمة، سوى قطعة أرض منسية، وبضع أشجار نخيل ومجموعة من الأزهار البرية التي تنبت بشكل عشوائي خلال فصل الربيع. فهل يعرف سكّان الرملة البيضاء أن في منطقتهم حديقة عامة يمكن أن يزوروها؟ «لا توجد حديقة في منطقة الرملة البيضاء، هناك قطعة ارض بين بنايتين، فيها بعض الورود، ما من حدائق أخرى»، يقول رجل أربعيني عند سؤاله عن موقع الحديقة. لا يجوز لهذه الأمتار المربعة الخضراء أن تندثر من الذاكرة، لا بد أن يستذكر مفترشو الأرصفة شيئاً عن ماضي المكان. وعلى رصيف يتوسط المسافة بين ما تبقى من الحديقة والبحر يجلس رجل سبعيني، «أربعاء أيوب، تقليد بيروتي عرفته صغيراً، حينها كنا نقصد شاطئ الرملة البيضاء خلال شهر نيسان للاحتفال بالربيع، وكان الشاطئ محاطاً بالخضار، أما اليوم فالحديقة لم تعد موجودة، لم يعد هناك سوى قطعة أرض صغيرة يقصدها الفقراء»، ينحت الرجل في ذاكرته.

ومن بين «فقراء الحديقة»، سائقان لسيارات أجرة، افترشا الأرض الترابية لاحتساء الشاي والقهوة خلال استراحتهما. الرجلان لم يعاصرا الحديقة قبل أن تتقلص، كل ما يعرفانه عنها أنها قطعة الأرض المتبقية... «معظم الأشخاص، يقصدون الحديقة لتناول الكحول، ويخرجون منها بحالة سكر» يلاحظان. تحوّل جذري في مفهوم الحديقة العامة في ظل الإهمال الذي يحيط بها. هكذا ينقسم المشهد إلى إطارين، الأول رجل لا يريد التخلي عن صورة المجتمع الذي كان يزور هذه الحديقة قبل أن تندثر، والثاني شباب يبحث في ما تبقى من هذه الحديقة عن فسحة من الحرية الشخصية والهواء الطلق. والحديقة بالمعنى البديهي، مكان يلتقي فيه الأشخاص على اختلافهم. لكن كل ذلك، على ما يبدو، انتهى.

وعلى رصيف يتوسط المسافة بين ما تبقى من الحديقة والبحر يجلس رجل سبعيني، «أربعاء أيوب، تقليد بيروتي عرفته صغيراً، حينها كنا نقصد شاطئ الرملة البيضاء خلال شهر نيسان للاحتفال بالربيع